جب Gibb
الاتجاهات الحديثة فى الإسلام
Modern Trends in Islam

« هـ.أ.ر جب H.A.R.Gibb » مستشرق انجليزى معاصر، كانت له شهرة واسعة فى حياته، وما يزال يذكر من بين أبرز المستشرقين المعاصرين، وكان عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واختياره عضوا فى هذا المجمع الذى لا يدخله إلا لفطاحل من أهل اللغة، يدل من ناحية على مدى تضلعه فى اللغة العربية، ويدل من جهة أخرى على مدى إعجاب الناس به فى وقته، ومدى إحسانهم الظن به!

وقيمته عندنا أنه صاحب اتجاه جديد فى الاستشراق (١)، الاتجاه الذى لا يتخذ الهجوم الشرس المتواصل منهجا له للوصول إلى أهدافه، إنما هو المنهج الذى جاء ذكره فى كتاب الله:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

[آل عمران: ٧٢ – ٧٣]

فهو لا يتظاهر بالحياد فحسب – فكلهم يدعون ذلك – إنما هو يزجى من المديح ما يريح أعصاب القارئ المسلم، فيظن أن الكاتب متعاطف معه، مقدر – على الأقل – لبعض جوانب العظمة فى دينه، فلا داعى لإساءة الظن به ابتداء، إنما الأولى إحسان الظن به! فإذا ألقى القارئ سلاح الحذر بتأثير هذا المديح المريح، دس له المستشرق ما يشاء من السموم، فيتشر بها من لديه استعداد لابتلاع الطعم ويتأثر بها بقدر ما ألقى من سلاح الحذر، وبقدر ما انشرحت نفسه للطعم المسموم!

---

(١) أشرنا إليه فى الفصل السابق.

وقد كان لجب تلاميذ، من أبرعهم «جرونيباوم»، أما أبرعهم جميعا فى ظنى فهو «ولفرد كانتول سميث» الذى بذّ أستاذه فى استخدام هذا المنهج، مع دقة فى الفهم، وبراعة فى الأداء.[١].

* * *

والكتاب الذى اخترناه له هو من أشهر كتبه، وعلى الرغم من مضى أكثر من نصف قرن على تأليفه[٢]، فما زال مذكورا عند الذين يهتمون بكتب المستشرقين، والذين يهتمون بجب بصفة خاصة. وهو يتحدث عن الأزمة التى يمر بها المسلمون فى واقعهم المعاصر، ويدل على متابعة دقيقة لما كان يصدر فى وقته من الكتب والأبحاث والدراسات الإسلامية من إنتاج المسلمين، المكتوب بالعربية بصفة خاصة، وبالأوردية كذلك، فضلا عن الانجليزية بطبيعة الحال[٣].

وعند ظهور الكتاب احتفى به كثير من المسلمين، وقال عدد منهم: هذا هو الذى فهم أوضاعنا تماما، وحللها تحليلا دقيقا، وقدم تشخيصا واعيا للأزمة التى نمر بها، بمختلف تياراتها وعناصرها، ووضع يده على جسم المشكلة ... فيجدر بنا أن نثق به ونتبع توجيهاته؛ فهو رجل ينظر إلى الأمور نظرة محايدة بل يتعاطف معنا، ويرجو لنا الخلاص من أزمتنا والاستقرار على أرض صلبة راسخة!

* * *

أما وجود الأزمة فأمر متفق عليه! فلا أحد ينكر أن المسلمين يمرون بأزمة شديدة فى الوقت الحاضر.

أما التشخيص والعلاج فليس من المستغرب ابتداء أن تختلف فيه وجهات

---

(١) سنناقش كتبهما فيما يلى من هذا الفصل.

(٢) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٦م.

(٣) من الكتاب الهنود وغيرهم.

النظر، حسب زاوية الرصد التى يرصد منها كل راصد، وحسب الهدف، الذى يريد تحقيقه من خلال العلاج ... هذا إذا افترضنا حسن النية والإخلاص فى واضعى العلاج جميعا ... أما حين تدخل الأهواء فى الموضوع – وهى فى حالتنا داخلة لا محالة – فإن الخلاف قد يصل من النقيض إلى النقيض!

الأزمة فى تصورنا نشأت من عوامل داخلية وعوامل خارجية فى آن واحد.

ففى الداخل كان الانحراف المستمر عن التصور الإسلامى الصحيح، والسلوك الإسلامى الصحيح، وخاصة حين تحول الإسلام فى نفوس الناس فى الفترة الأخيرة إلى تقاليد تراعى لذاتها، ويُحْرَصُ عليها، ولكنها خاوية من الروح الحقيقية التى أنشأتها أول مرة، تلك الروح الحية الدافعة التى صنعت بحيويتها الأعاجيب، مضافا إلى ذلك جمود الفقه على ما كان عليه فى القرنين الرابع والخامس الهجريين، مما نشأ عنه ضمور فى تلك الأداة الفذة التى جعلها الله أداة للتجدد الدائم فى حياة الأمة، وصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، باستنباط أحكام متجددة لما يجد فى حياة الناس من أمور، مستمدة من الأصول الثابتة فى الشريعة الربانية، لكى تتسع لكل نمو سوى فى حياة البشرية، وتضبط منطلقات الناس فى الوقت ذاته فلا ينحرفون خارج إطار الشريعة.

ثم أدى هذا الجمود إلى ضعف تدريجى فى كل مناحى الحياة، السياسية والحربية والاقتصادية والعلمية والعملية، استغلته القوى المتربصة بالإسلام والمسلمين منذ جاء هذا الدين إلى الوجود، فهجمت هجمتها، فاحتلت بقوتها العسكرية بلاد العالم الإسلامى، وجاءت معها فى هذه المرة بلون جديد من السلاح، هو الغزو الفكرى، الذى يحاول اقتلاع العقيدة من جذورها، أو فى القليل صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، ولىّ أعناقهم نحو الغرب ليكونوا مستعبدين له من داخل نفوسهم، فتسهل السيطرة عليهم، وتمتد السيطرة ما دام الاستعباد.

هذه هى القضية كما نراها، مستندين فيها إلى وقائع التاريخ [1].

والعلاج فى نظرنا هو العودة إلى الإسلام، بمفاهيمه الحقيقية كما أنزلها الله، وعلمها رسول الله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم، لتتوارثها الأجيال.

ولكن جب – وغيره من المستشرقين – لا يستريحون لهذا التفسير، ولا هذا التشخيص، ولا هذا العلاج، لأمر لا يخفى ... لأن مطلوبهم هو زحزحة المسلمين عن إسلامهم لا تثبيتهم عليه، وصرفهم عن التمسك بالإسلام لا دعوتهم إلى الرجوع إليه.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

وهم يتخذون إلى غايتهم هذه وسائل شتى شرحناها فى الفصل السابق، من بينها الإيحاء إلى المسلمين أن سبب ضعفهم وتأخرهم هو الإسلام ذاته! ومن ثم عليهم أن ينبذوه لكى يتقووا ويتحضروا ويتقدموا!

وهنا يختلف جب – ومعظم تلاميذه – عن المستشرقين الآخرين.

ليس الإسلام فى ذاته هو سبب ضعف المسلمين وتخلفهم، فقد أنشأ هذا الدين فى يوم من الأيام حضارة مشرقة باسقة من أكبر حضارات التاريخ ... إنما السبب أنهم وقفوا فى أفكارهم وتصوراتهم عند تفسير معين له، كان يتناسب مع ظروف القرون التى بزغ فيها فجر تلك الحضارة وامتد فى الآفاق. ثم تغير الزمان، وجدت فى حياة الناس أمور – خاصة فى العصر الحديث – لم يعد يناسبها ذلك التفسير، فلزم المسلمين أن يقدموا لدينهم تفسيرا جديدا يناسب ما جدَ فى حياة الناس – كما فعلت المسيحية – ولكنهم لم يفعلوا، وأصروا على تفسيرهم الأول فكان هذا هو الخطأ الذى ارتكبوه.

ثم جاء التفوق الأوربى ففرض على المسلمين أوضاعا جديدة كل الجدة، مخالفة فى كثير من الأحيان للتفسيرات الدينية التى وضعت فى القرون

---

(١) تحدثنا عن هذه الأمور تفصيلا فى كتاب «واقعنا المعاصر».

الوسطى، فحدث الاضطراب فى حياة المسلمين بين الشد والجذب، إذ هم يرغبون فى الأخذ بما تقدمه الحضارة الأوربية من مفاهيم تقدمية، ولكنهم يجدون دينهم - أو بالأحرى تفسيرات القرون الوسطى لدينهم - حاجزا يحول بينهم وبين ما يرغبون، فتضطرب خطاهم على الأرض، وتضطرب أفكارهم وتتشتت، فمنهم من يصر على اتباع القديم لا يتزحزح عنه، ومنهم من ينبذ الدين كله، ومنهم من يطلب تفسيرا جديدا للدين يناسب الأوضاع القائمة، ومنهم من يحاول تأويل النصوص ذاتها للخروج منها بالمعانى المطلوبة ... وتلك هى «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام»!

تلك خلاصة ما يقوله جب فى هذا الكتاب ...

وبعض ما يقول قد يبدو للوهلة الأولى صحيحا مائة بالمئة، ومحايدا مائة بالمائة، ولكن فلننظر فى تفصيلات الكتاب، لنرى القدر الصحيح والقدر الزائف، وما هو محايد وما هو متحيز مما يقول.

* * *

ولنبدأ من أول اكتاب ...

فى صفحة (٣) يقول: إن المسلمين يعتقدون اعتقادا جازما لا سبيل إلى زحزحتهم عنه، أن القرآن كلام الله، وإن هذا الأمر - الذى لا سند له فى رأيه - له ما يفسره من العقلية الساميّة التى يسهل عليها الإيمان بعالم الغيب، وإمكان الاتصال به عن طريق النبوة والأنبياء!

إذن ... فليس القرآن فى حقيقته كلام الله، ولا موحىً به من عنده. إنما هذا ما يتوهمه المسلمون - العرب الساميون - بما ركب فى طبيعتهم من سهولة تصديق مثل هذه الأوهام!

موقف «استشراقى» مائه فى المائة!

والأمر فى نظرنا ليس بمستغرب! فكما قلنا فى الفصل الماضى: لو أنه أقرّ بأن القرآن كلام الله للزمه أن يؤمن به، وهو لا يريد! وأن يؤمن بالرسول ﷺ، وهو لا

يريد! فالمخرج إذن أن ينفى عن القرآن مصدره الربانى، ليصبح هو على صواب فى عدم الإيمان به! وصدق الله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]

شنشنة نعرفها من أخزم!

ولكن حيث يطلقها غيره من المستشرقين ليشككوا فى صدق الوحى فحسب، ويزلزلوا بها عقائد المسلمين الذين يتأثرون بهم، ويأخذون كلامهم مأخذ الجد، يهدف هو إلى هدف بعيد، يتبين كلما توغل الإنسان فى القراءة، إذ يقول - بالتلميح الذى يقرب من التصريح - إن ما تتشبثون به أيها المسلمون على أنه - حرفيا - كلام الله، ليس وحيا فى الحقيقة، إنما هذا وهم توهمتموه، وقد أدى تشبثكم به إلى ما أصابكم من ضعف وتخلف، فلا عليكم أن تنفضوا أيديكم منه، وتغيروه بما يناسب الأوضاع القائمة اليوم، ويكون لكم بذلك «إسلام جديد» يمنحكم التقدم والقوة والرقى!

وفى صفحة (١٠) يشكك فى المصدر الثانى من مصادر الإسلام وهو السنة النبوية، فيقول إنها من وضع المسلمين فى وقت لاحق لحياة الرسول ﷺ، وإنما صاغوها من خيالهم لتناسب صورة متخيلة لما ينبغى أن يكون عليه الرسول ﷺ، فنسبوا إليه صفات لم تكن له، إنما هى الصفات النموذجية التى تخيلوها، ونسبوا إليه أقوالا ليست له، إنما هى الأقوال التى تخيلوا أن الرسول الموحى إليه من عند الله ينبغى أن يقولها فى شتى الموضوعات!

فإذا كان هذا شأن الكتاب وشأن السنة فماذا بقى من الإسلام؟!

ليس العجب أن يقول ما يقول!

إنما العجب أن تغشى أبصار قوم يقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، ثم يقولون عن هذا المستشرق وأمثاله إنهم قوم نزيهون، يبغون البحث الموضوعى الخالص ولا يلتوون ولا يغالطون!

* * *

فيما بين الضربة الأولى المتعلقة بالقرآن والضربة الثانية المتعلقة بالسنة، يضرب ضربة أخرى فى صفحة (٧) يقول فيها عجبا من العجب!

يقرر أولا قاعدة عامة مفادها أن التفوق فى بعض الجوانب كثيرا ما يكون ناشئا عن نقص فى جوانب أخرى! ثم يقول إن المنهج التجريبى فى البحث العلمى، الذى استحدثه المسلمون وكان سببا فى التقدم الهائل الذى حدث فى ميدان العلوم، ناشئ من عيب فى الطبيعة العربية (!!) فهى طبيعة حسية جزئية تدرك الحالة المفرده وتعجز عن إدراك الكليات، وتميل إلى التعامل مع المحسوس وتعجز عن التجريد !!

أرأيت!

أرأيت إلى الحقد الكائن فى نفوس الغرب من أن يكون للمسلمين أى تفوق يذكرون به؟!

لو أن المنهج التجريبى فى البحث العلمى كان مما اهتدت إليه أوربا، وسبقت به، كم كان كتابها سيشيدون به، وبعظمة أوربا التى اهتدت إليه، وبالعبقرية الفذة التى أنتجته، وبالدلالة الواضحة على الذكاء والتفوق. والأهلية للسيادة والريادة، وقيادة البشرية!

أما والمسلمون هم الذين استحدثوه، ولا سبيل إلى إنكار ذلك أو تجاهله، فليكن الأمر عيبا ونقصا فى المسلمين، والنقص قد يؤدى إلى التفوق ... ولكنه تفوق معيب منقوص !!!

ذلك هو الغرور الأوربى المقيت، الذى يستنكف أن يكون لأحدٍ مزية غيرهم. فإذا أضيف إليه الحقد الصليبى، فالنتيجة هى ما ترى من كلام المستشرقين!

إن المنهج التجريبى فى البحث العلمى هو ثمرة ناضجة من ثمار الإسلام!

فلم يكن للعرب قبل إسلامهم أى اتجاه علمى، نظرى ولا تطبيقى،

والإسلام هو الذى دفعهم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض، والتدبر فى آيات الله فى الكون. والإسلام كذلك هو الذى دفعهم إلى تحقيق التسخير الربانى لما خلق الله فى السموات والأرض لفائدة الإنسان:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... ﴾ [الإسراء: ١٢]

كلا! إنه ليس منهجا «عربيا» ناشئا من عيب فى الطبيعة العربية، إنما هو منهج «إسلامى» ناشئ من اكتمال هذا الدين وعظمته، وشموله كل جوانب الحياة، الحسى منها والمعنوى، النظرى منها والتطبيقى.

ولا يستحى المستشرقون - ومن بينهم جب - وهم يرمون المسلمين بالنقائص التى من بينها العجز عن التجريد واستخلاص الكليات، أن يقولوا - كما يقول جب فى هذا الكتاب الذى نحن بصدده - إن «عيب» المسلمين أنهم يتصورون الله فى صورة فوقية سامية تجريدية Transcendent بينما «مزية» أوربا فى نهضتها الحديثة أنها تصورت الله فى صورة قريبة محسوسة واضحة فى الكائنات Immanent وإن تصور المسلمين هذا - الذى يصرون عليه لعيب فيهم (!) - كان مناسبا للعصور الوسطى، بينما المناسب للعصر الحديث هو التصور الأوربى !!

* * *

فى صفحة (١٦) يعترف بالمرونة فى هذا الدين، ولكنه يرجعها إلى عيب فى طبيعة البيئة، هو عدم القدرة على الدقة والانضباط !!

وفى أماكن أخرى من الكتاب يعيب على المسلمين الحرفية فى تطبيق تعاليم الإسلام، والتزمت فى التعامل مع نصوصه !!

obeikandi.com

أى أنه العيب من هنا والعيب من هناك، ولا توفيق هنا ولا توفيق هناك!

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]

* * *

فى صفحة (١٩) يتحدث عن المعركة التى قامت بين الإسلام والثقافة الإغريقية، وانتصر فيها الإسلام انتصارا حاسما على الثقافة الإغريقية، ولكنه يرتب على ذلك جمود الإسلام بعد ذلك، وعدم قدرته على الترقى، بينما ارتقى الغرب بسبب تزوده بالثقافة الإغريقية!

وانتصار الإسلام لم يكن لأى تفوق فى تفكير المسلمين، إنما كان لعيب فى تكوينهم (!) جعلهم يتعلقون بالحقائق القرآنية تعلقا وجدانيا، وليس عقلانيا كما تفعل الثقافة الإغريقية!

* * *

فى صفحتى (٢٤ – ٢٥) يعتبر القرنين السابع عشر والثامن عشر (الحادى عشر والثانى عشر الهجريين) قمة النشاط الإسلامى، ولا يوافق من يقول إنها كانت فترة انتكاس وتقلص بسبب نشاط الصوفية!! ويقف يدافع دفاعا حارا عن الصوفية و« جهادها » فى إحياء الإسلام!

ومن الحق أن يقال إن العقيدة كانت تقدم للناس فى قالب جاف يفتقد الحيوية والنداوة الروحية، ويحول العقيدة إلى قضايا ذهنية جافة، لا يجد فيها العامة إشباعا لوجدانهم الروحى، وأن الصوفية هى التى قامت بتغذية هذا الوجدان، كما أن الصوفية هى التى حافظت على ترابط العالم الإسلامى حين جنحت الخلافات السياسية إلى التباعد والتمزق ... ولكن هذا لا ينفى انحراف الصوفية فى جانب العقيدة وفى جانب السلوك. ففى جانب العقيدة دخلت مفاهيم مخالفة للتوحيد الخالص الذى جاء به الإسلام، سواء فى عقيدة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود، وكلها لا أصل لها فى الإسلام، ولا تتقبلها عقيدة التوحيد. وفى جانب السلوك حل التواكل السلبى المريض محل التوكل الصحيح

مع اتخاذ الأسباب، فتأخر العالم الإسلامى فى جميع المجالات العملية الواقعية المتصلة بالحياة الدنيا، بزعم توثيق الصلة بالله واليوم الآخر، بينما الإسلام يدعو إلى بذل كل النشاط الحيوى فى واقع الأرض، مع الاتجاه فى الوقت ذاته إلى اليوم الآخر، ليتوازن الإنسان ما بين قبضة الطين ونفخة الروح، وليتكامل تكوينه كله ويترابط، فلا يجنح من هنا ولا من هناك:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]

أما دفاع المستشرقين عن الصوفية فهو مفهوم ... فكل انحراف عن الخط السليم هو مكسب لهم فى معركتهم ضد الإسلام.

* * *

وفى صفحة (٢٥) يعود فيقرر أن الإسلام كان يضعف ويتقلص فى ذات الفترة التى نفى عنها منذ هنيهة أنها كانت فترة ضعف وانحسار، وذلك لينفى أن الضعف جاء نتيجة الغزو الأوربى للعالم الإسلامى، وسوء أحوال المسلمين فى ظل الاحتلال. ولا يبالى أن يتناقض كلامه فى الصفحة الواحدة فى القضية الواحدة. فلكل مقام مقال! المقام الأول كان دفاعا عن الصوفية لأسباب مفهومة، والمقام الثانى كان دفاعا عن الغزو الصليبى للعالم الإسلامى لأسباب مفهومة كذلك! ولا حرج أن تجئ الضربة الآتية من اليمين مضادة فى اتجاهها للضربة الآتية من اليسار، فالمهم هو الضرب من كل الجوانب، إرواء لأحقاد الصليبية الصهيونية، التى لا يهمها «المنطق العقلانى» بقدر ما يهمها التدمير!

* * *

فى صفحتى (٣٧ – ٣٨) يبدى أسفه على ما فقدته الصوفية من نفوذ بسبب الصحوة الإسلامية، ولكنه يعود فى نفس السياق فيبدى سروره من أن نفودها ما زال باقيا فى صفوف العامة بسبب « حيويتها الفائقة ! ! »

* * *

فى صفحة (٤٢) يقول إن التوسع فى التعليم الابتدائى والثانوى (فى مصر) أنتج اتجاها علمانيا متزايدا، وجعل التعليم يتفرق إلى تعليم دينى وتعليم علمانى، وأوجد وضعا تتصارع فيه مدرسة إزاء مدرسة وجامعة إزاء جامعة !

وهذا حق يراد به باطل ضخم!

فما الذى جعل التعليم ينقسم على هذه الصورة، التى يتصادم فيها تياران متضادان فى بلد واحد؟ هل حدث ذلك من تلقاء نفسه كما يريد أن يوحى إلى القارئ؟! أم كان ذلك بفعل الاستعمار وبقصد منه؟! وماذا كان يفعل دنلوب – القسيس – وماذا كان يقصد حين وضع سياسته التعليمية، التى تخرّج علمانيين لا يعرفون عن إسلامهم إلا الشبهات التى يثيرها المستشرقون، ولا يعرفون عن تاريخهم إلا أسوأ ما فيه، بينما تسلط الأضواء أمامهم على أوربا، وحضارتها، وقيمها، ومفاهيمها، وتقدمها فى كل ميدان، وتخفى سيئاتها كلها التى فى مقدمتها الاستعمار وبشاعاته ؟!

فهل كان التوسع فى التعليم – من ذات نفسه – هو الذى أنشأ هؤلاء العلمانيين النافرين من الدين، أم كان الحقنُ المسموم الذى يحقن به الطلاب فى كل درس من الدروس؟

وعلى أى حال فقد عاش المؤلف حتى رأى بدايات الأجيال التى خرّجتها الصحوة الإسلامية، التى كان المتفوقون فيها فى الكليات العلمية العلمانية : الطب والهندسة والعلوم، هم أصحاب الاتجاه الإسلامى، الذين أنقذتهم الصحوة مما يراد لهم من البعد عن الدين!

* * *

فى صفحة (٤٥) يقول إن علماء اللاهوت فى المسيحية الأوربية طوروا نظرتهم إلى الكتب المقدسة بحسب نظرية التطور، والنظرية التاريخية، فأدركوا أنها كانت حلقة فى عملية نمو مستمرة لا تتوقف، ولا تعطى الكلمة النهائية فى الأمور، وعلى ذلك تكون ممثلة لعصرها ولا زيادة، وهو عصر يختلف تماما عن عصرنا.

وفى صفحة (٤٧) يقول إن علماء اللاهوت فى الغرب المسيحى قد أعادوا تشكيل الفكر الدينى عندهم بما يتمشى مع الفلسفات المعاصرة والنظرة التاريخية، ولكن لم يحدث مثل ذلك فى الإسلام إلا فى الحدود الضيقة التى قام بها محمد عبده!

فما الذى قام به محمد عبده على وجه التحديد؟! وما المطلوب من علماء المسلمين فى الوقت الحاضر؟

إن أوربا حرة تصنع فى دينها ما تشاء. ولكن ماذا عن الإسلام؟

لقد اختلط فى الدين الأوربى ما كان منزلا من عند الله، وما أضافه البشر من عند أنفسهم، وزعموا أنه من عند الله.

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ [البقرة: ٧٩]

﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [آل عمران: ٧٨]

فإذا وجدت أوربا فى يوم من الأيام أن الأفكار المستمدة من دينها لا تتفق مع العصر، أو أنها تحتاج إلى إعادة النظر، أو إلى التبديل الكلى، فهذا شأنها مع دينها، تفعل فيه ما تشاء. أما الكتاب المنزل من عند الله، الذى لم يختلط بحرف واحد من أقوال البشر، فما المطلوب من المسلمين تجاهه؟

أما التفسير العقلانى الذى أراده محمد عبده، وفسر فيه المعجزات بما ينفى

obeikandi.com

المعجزة ويحيلها إلى السنن الجارية، فالطير الأبابيل جراثيم الجدرى، وانقسام البحر ﴿فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] إنما هو مد وجزر، ففى الجزر مر موسى ومن معه من بنى إسرائيل حتى إذا جاء فرعون وجنوده كان المد قد عاد فأغرقهم ... إلخ، أما هذا التفسير فقد رفض فى حينه، وما يزال مرفوضا حتى اللحظة، وهو يمثل هزيمة أمام «عقلانية» الغرب الحسية المادية التى لا تؤمن إلا بما تدركه الحواس، وتعتقد بحتمية «قوانين الطبيعة» وأن الله سبحانه وتعالى مقيد بها لا يستطيع أن يغيرها حتى لو أراد كما قال نيوتن! (١) والمسلم الذى يعرف قدرة الله التى لا تحد، لا يخضع عقله لهلوسات العقلانية المادية التى صار إليها الغرب لظروف خاصة به. ومهما يكن من حسن النية عند محمد عبده، وأنه كان يريد أن يدافع عن الإسلام ضد الهجوم الشرس الذى كان الغرب عن طريق المنصرين يوجهه للإسلام، والذى كانوا يقولون فيه إن القرآن مليء «بالخرافات!» ... فإن هذا لا يبرر للمسلم أن يتراجع عن مقتضيات إيمانه بالله، وعظمته، وقدرته، ليجارى سفاهة السفهاء المطموسى البصيرة، الذين يظنون بالله ظن الجاهلية. فيحسبونه عاجزا عن أعمال قدر سبحانه على أعظم منها وأجلّ!

﴿وما قدروا اللهَ حقّ قدره﴾ [الزمر: ٦٧]

* * *

فى صفحة (٤٩) يزعم – دفاعا عن الغرب وسموم العلمانية التى بثها فى العالم الإسلامى فى مناهج التعليم ووسائل الإعلام – يزعم أن تلك العلمانية لم تؤثر تأثيرا يذكر على الناحية الاعتقادية عند المسلمين!

وقد نعذره حين نعلم تصور الغرب لأمور العقيدة، ومحدوديتها، وتعلقها بأمور الآخرة وحدها. ولكنا لا نعذره من جانب آخر حين نعلم أنه يعرف حقيقة هذا الدين، وأن الدين والدولة فيه شئ واحد لا ينفصلان، وأن تحكيم الشريعة الربانية هو جزء لا ينفصل عن العقيدة. كما ذكر هو نفسه فى الكتاب!

---

(١) اقرأ نص قولة نيوتن هذه إن شئت فى فصل «العلمانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

فما دام يعرف أن العقيدة والشريعة (أو الدين والدولة كما يحلولهم أن يعبروا) لا ينفصلان عن بعضهما البعض فى هذا الدين (كما أقر هو نفسه فى صفحة ٨٩) ويعلم فى الوقت ذاته أن الغرب المستعمر قد فرض على المسلمين فصل الدين عن الدولة، وحصر الدين فى أمور الآخرة وحدها – باسم العلمانية – فكيف يقول إن العلمانية – المجلوبة من الغرب – لم تؤثر تأثيرا يذكر فى الناحية الاعتقادية عند المسلمين؟!

* * *

فى صفحة (٥٠) كلام مبطن بالأسف (أم بالحقد؟) لكون الأبحاث العقلانية النقدية قد تناولت السنة النبوية، ولكنها حتى الآن لم تتناول القرآن! وبقى القرآن فى حس المسلمين غير قابل للتبديل ولا التغيير، وما زال فى حسّهم ملزما فى الوقت الحاضر كما كان قبل ألف عام!!

أليس هذا تحريضا واضحا على التعرض للقرآن بالنقد الذى يزيل عنه القداسة والإلزام، وهو ما يقوم به تلاميذ المستشرقين شر قيام؟!

* * *

فى صفحة (٥١) يزعم أن العلمانية لم تأت إلى المسلمين من النفوذ الغربى فقد كانت موجودة من قبل حتى فى إسلام «العصور الوسطى» كما يجرى اصطلاح المستشرقين ، ثم إنها وجدت فى العالم الإسلامى ردّ فعلٍ لانحرافات الصوفية.. ثم يحاول تغطية الفساد القادم من الغرب مع العلمانية بأنه جاء على كيان مخرب بالفعل . ثم يضطر فى النهاية إلى الاعتراف بأن علمانية الغرب قد أحدثت فسادا فى التفكير والسلوك فيمن تأثروا بها كالفساد الذى أحدثته فى الغرب ذاته حين لم يعد فى قلوب الناس حساب للآخرة ولا خوف من عقاب الله في اليوم الآخر !

ثلاثة مواقف مختلفة فى صفحة واحدة من كتاب واحد ، يلاحظ فيها التلوى من موقف إلى موقف إلي موقف ، كالتواء المتهم الذى يحاول أن يتملص من تهمة لاصقة به ! ومع ذلك يزعمون أنه بحث «علمى» «موضوعى» «برئ»!

إن القول بوجود العلمانية فى «إسلام القرون الوسطى» فرية تحمل فى طياتها مغالطة ضخمة لا يجيدها إلا المستشرقون ! فما أبرز سمات العلمانية التى تميزها لأول وهلة عن المفاهيم الدينية ؟ إنها فصل الدين عن الدولة . . فهل حدث ذلك في إسلام تلك الفترة ؟ أى – بتعبيرنا نحن – هل وقع المسلمون في هذه الخطيئة التى تقسم الأمور إلي دنيوى وأخروى . وتبعد الدين عن أمور الدنيا وتحصره فى أمور الآخرة ؟!

المغالطة – المقصودة – هنا أن الإسلام – دائمًا في كل عهوده – يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة معا فى آن واحد ، مترابطتين متشابكتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى . «وجب» نفسه يعرف ذلك جيدا ، ويردده فى أكثر من موضع فى كتابه (وخذ مثلا على ذلك ما جاء فى صفحة ٨٩ من الكتاب) فوجود الجانب الدنيوى فى تشريعات هذا الدين وتوجيهاته أمر أشهر من أن يشار إليه ، أما تسمية هذا «علمانية» للزعم بأن العلمانية كانت موجودة فى الإسلام قبل الغزو الأوربى ، ولم تأت إليه من الخارج ، فمغالطة مكشوفة ، ولعب بعقول القراء قبل أن يكون لعبا بالألفاظ !

أما الخراب الذى كان قائما فى «البيت الإسلامى» كما عبر «جب» ، ويقصد به الكيان الإسلامى بصفة عامة ، فقد كان سببه تحول الإسلام فى حياة الناس إلي تقاليد تراعى لذاتها دون أن يكون لها الأثر الحىّ فى النفوس ، الذى يدفعها إلي السلوك الإسلامى الصحيح ، وهذا كان موجودا بالفعل . وكان فى حاجة إلى إصلاح عميق ، بتجديد صلة الناس بدينهم . ليصبح سلوكهم نابعا من ضمير حىّ ، لا مجرد مراعاة للتقاليد . ولكن قبل أن يحدث هذا (وقد حدث فى موعده المقدور عند الله مع حركات البعث الإسلامى التى عملت على تجديد صلة الناس بدينهم) جاءت العلمانية الأوربية مع الغزو العسكرى ، فلا هى أعطت العلاج للمرض القائم . ولا هى تركته على حاله ، بل أضافت إليه أمراض الانحلال الخلقى التى تصحب العلمانية أينما حلت ، والتى أشار إليها «جب» نفسه ، وقال إنها تحدث نتيجة عدم الإيمان بالآخرة – أو عدم الاهتمام بشأنها – وعدم الشعور بالخشية من عقاب الله .

فأين هذه الرؤية الواقعية للتاريخ من التواءات جب ، التى يريد بها مجرد تبرئة الغرب من إفساد حال المسلمين ، بصرف النظر عن وقائع التاريخ ؟ وليجب من شاء على سؤال واحد من أسئلة كثيرة : لماذا حرص الاحتلال الأوربى على تنحية الشريعة الإسلامية فى كل بلد دنسته قدماه ؟!

* * *

فى صفحة (٨٦) يعترف – بعد كلام طويل – بهزيمة الكنيسة الأوربية أمام القانون الرومانى . ثم يقول إنها عندما كانت على وشك الانتصار عليه وقعت فى يد خصمين عنيدين ، أحدهما « النزعة الإنسانية Humanism » ، والآخر « العلم Science » ، وأنها انهزمت أمامهما أيضاً .

وهذا الاعتراف فى ذاته جيد ، وهو ما يميز مدرسة « جب » عن المدارس السابقة التى ترمى الإسلام بكل نقيصة وتصف الغرب بكل فضيلة ولو كان عاريا منها .

نعم ! ولكنه اعتراف ناقص ، ومشوب كذلك !

فالكنيسة الأوربية فى أول عهدها كانت مغلوبة على أمرها بالفعل ، لا تملك أمرها إزاء الإمبراطورية الرومانية الطاغية الجبارة التي تضطهد الدين الجديد وتحارب أهله وتتعقبهم بالقتل والتشريد فى أرجائها الواسعة . ولكنها منذ القرن الرابع ، منذ اعتناق قسطنطين للنصرانية (أو تظاهره باعتناقها) سنة ٣٢٥ م ، بدأ نفوذها يبرز حتى صار البابا هو المسيطر على الإمبراطورية الرومانية ، حكامها ومحكوميها على السواء، وظل هذا النفوذ قائما حتى القرن الثانى عشر على الأقل، فلماذا لم تفكر الكنيسة فى فترة سيطرتها فى تحكيم الشريعة الربانية بدلا من القانون الرومانى ؟! إنما كان البابوات مشغولين بفرض نفوذهم الشخصى ، وسلطانهم الذاتي ، عن تحكيم الشريعة الربانية الواردة فى إنجيلهم والتى قال الله عنها : ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٧] .

على أن أمر الكنيسة الأوربية هذا لا يعنينا فى شئ ، إنما هو تعليق عابر على كلام « جب » الذى يجافي وقائع التاريخ . . ولكنا نقف وقفة عند قوله : إن الكنيسة وقعت فى يد خصمين عنيدين : النزعة الإنسانية والعلم . .

فلماذا كان هذان الخصمان العنيدان عدوين للكنيسة ؟!

لو كان الدين الذى اعتنقته الكنيسة يعطى « الإنسان » قدره ويلبى إحساسه بذاته وبإيجابيته ، وفى الوقت ذاته لا يعادى العلم والبحث العلمى ، فهل كانت هاتان النزعتان الفطريتان تقفان موقف العداء من الكنيسة ، ومن الدين الذى تقدمه للناس ؟!

إنما نشأت « النزعة الإنسانية » فى أوربا ردّ فعلٍ للتصور الكنسى للدين ، الذى يحقّر الإنسان ، ولا يراه إلا خاطئا منحرفا ، قاصرا مقصرا . لا أمل فى صلاحه إلا بكبت نوازعه الحية كلها – بالرهبانية – والانخلاع من احياة الدنيا جملة ، والتفرغ للآخرة . . فمن أجل تمجيد الله – فى تعاليم الكنيسة – يحقر « الإنسان » ومن أجل تمجيد الآخرة تلعن الحياة الدنيا ، ومن أجل تمجيد الروح يلعن الجسد . وحين وقع التمرد على هذا التصور – أيًا كانت أسبابه – مُجِّد الإنسان بدلا من الله (١) ، ومجّدت الحياة الدنيا بدلا من الآخرة ، ومجّد الجسد بدلا من الروح ، وانقلبت أوربا فى موقفها مائة وثمانين درجة كاملة ، من أقصى اليمين إلي أقصى اليسار !

ثم جاءت الطامة حين وقفت الكنيسة تحارب العلم بوحشية لا مثيل لها ، فتحرق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وبأن الأرض ليست مركز الكون ! فوقع الصراع بين العلم والدين – وانتصر العلم – كما وقع من قبل بين « النزعة الإنسانية » وبين الدين ، وانتصرت النزعة الإنسانية !

---

(١) ليس مفهوم « النزعة الإنسانية » – كما يظن بعض الناس حين يقرأون هذا التعبير – الاهتمام بأمور الإنسان ، إنما معناه الأمور التى يؤخذ العلم فيها من الإنسان لا من الوحى الربانى ، فهى نزعة لا دينية منذ مولدها ، ولهذا قام الصراع بينها وبين الكنيسة ، وانهزمت الكنيسة في الصراع كما يقرر « جب » !

وكان ينبغى لجب – لكى يكون بحثه نزيها وخالصا للحق – أن يذكر هذه الوقائع التاريخية ، ويذكر فى مقابلها موقف الإسلام من هذين الأمرين بالذات ، ذلك الموقف الذى يشهد للإسلام بأنه الدين الصحيح ، الشامل المتوازن ، الذى يحقق «للإنسان» كيانه ، ويحقق للبشرية التقدم والازدهار ، لأنه «دين الحق» :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ... ﴾

[الصف : ٩]

إن تمجيد الإسلام لله سبحانه وتعالى ، وتقديسه له ، وتعظيمه وتوقيره ، وإفراده بالألوهية والربوبية ، وإخلاص العبادة له وحده دون شريك ، أوضح من أن يحتاج إلى دليل . ولكن تكريم الإسلام للإنسان واضح كذلك ، أوضح من أن يحتاج إلى دليل :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]

لذلك لم يكن المسلم فى حاجة إلي «نزعة إنسانية» معادية للدين لإثبات وجوده ، فوجوده متحقق من خلال دينه ، وتكريمه منصوص عليه فى هذا الدين، وفاعليته ، وإيجابيته مقررة فيه ، فقد أسند إليه هذا الدين عمارة الأرض :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ... ﴾

[الملك : ١٥]

وأسند إليه كذلك مهمة عظمى هى «الجهاد» لإقامة العدل فى الأرض ومقاومة الطغيان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠، ١١]

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [الأنفال : ٣٩]

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة : ٢٥١]

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ [النساء : ٧٥]

وكان من أكبر دلائل التكريم أن أعطاه حرية الاختيار ، مقابل المسئولية عن الاختيار :

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ [البقرة : ٢٥٦]

أما « العلم » فلم يقم فى ظل الإسلام صراع بينه وبين « الدين » . بل كان من مزايا هذا الدين ومفاخره أنه هو الذى دفع المسلمين للبحث العلمى ، وهو الذى وجههم إلي المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، الذى تقوم عليه كل النهضة العلمية المعاصرة . . . ولم يقم قط فى حياة المسلمين ذلك الفصام النكد الذى أحدثته الكنيسة في حياة أوربا ، والذى مزق « الإنسان » هناك بين نزعتين فطريتين فى كيانه : نزعة العبادة ، ونزعة التعلم ، وإنما آخى الإسلام بينهما ، فحقق السلام للنفس من داخلها ، وأطلق طاقتها معمرة بانية فى واقع الأرض : تعبد الله فى طمأنينة ، وتسعى إلي التعرف علي الكون المادى ، لتسخير طاقاته المكنونة لخدمة الإنسان :

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد : ٢٨]

﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾ [الجاثية : ١٣]

﴿ وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها ﴾ [البقرة : ٣١]

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ ﴾ [النحل : ٧٨] . (أى لتتعلموا) .

لذلك لم يكن المسلم فى حاجة إلى «علمانية» معادية للدين لكى يعمر الأرض ، وينظم شئونها ، فدينه هو الذى يأمره بعمارة الأرض ؛ ودينه هو الذى يبصره بالنظام الذى يتبعه ليحفظ الأرض من الفساد .

والنظرة المنصفة ترى هذه الحقائق كلها ، لأنها واضحة فى هذا الدين .. ولسنا نتوقع الإنصاف من المستشرقين بطبيعة الحال .. ولكنا نعجب للذين يحملون أسماء إسلامية كيف يسمحون لأنفسهم أن يفتنهم المستشرقون عن دينهم ، وأن يتجرعوا سمومهم ، ويتبعوا خطاهم «حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه !!» (١) .

* * *

فى فصل «دين العصرانيين Modernist Religion» (٢) من صفحة (٦٣) إلي صفحة (٨٤) يركز على فكرة واحدة هى فكرة «التطور» ، وأن الفكر الدينى يجب أن يتطور مع تطور الفكرى البشرى !

ولو كان فى هذا الفصل يتكلم عن تطور الفقه (وقد تكلم عنه فى فصل لاحق) لكان لكلامه مناسبة . ولكنه يتكلم هنا عن العقيدة .. ويطلب تطويرها!

كيف بالله تتطور العقيدة ؟!

إن العقيدة الربانية لم تتطور منذ آدم ونوح والنبيين من بعده إلى محمد

---

(١) من حديث أوله : «لتتبعن سنن من قبلكم ..» أخرجه مسلم.

(٢) يقصد التصورات الدينية عند المسلمين المتأثرين بروح العصر ويريدون أن يفسروا الإسلام تفسيرا عصريا !

صلوات الله وسلامه عليهم ؛ ولا مجال فيها للتطور إلى قيام الساعة . . إنما الذى تطور حقا خلال التاريخ هو عقائد الجاهلية !

تطورت عقائد الجاهلية – فيما يقولون – من عبادة الأب ، إلى عبادة الطوطم [1] ، إلى عبادة قوى الطبيعة من ريح ورعد وبرق إلي عبادة الأفلاك ، إلى عبادة البشر ، إلى عبادة الأصنام . . . وكلها من عبادة الشيطان .

أما الدين السماوى الذى جاءت به الرسل من عند الله فهو – في العقيدة – واحد لا يتغير وإن تغيرت الشرائع ، فكل الرسل جاءوا يقولون كلمة واحدة هي « لا إله إلا الله » ويدعون إلى دين واحد خلاصته :﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** ﴾

[هود ٢٥ ، ٢٦]

﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾

[هود : ٥٠]

﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾

[هود : ٦١]

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾

[هود : ٨٤]

فكيف تتطور هذه العقيدة وهى حقائق أزلية غير قابلة للتغيير : الله هو الخالق ، وبقية الكائنات جميعا من خلق الله سبحانه وتعالى ، فواجبها أن تعبد الإله الخالق ولا تشرك به .

يقول جب : إن تصور الإله يختلف بحسب أحوال البشر ، ويتطور من

---

(١) حيوان أو طائر تعبده القبيلة وتظن أن بينه وبينها قرابة !

وضع إلي وضع ، وإن الإله الذى عبده الناس فى القرون الوسطى هو الإله المتعالى المتسامى Transcendent ، أما الإله الذى يعبده المحدثون فهو الإله الظاهر القريب Immanent ، وهذا يعتبر تطورا في العقيدة بما يناسب أحوال الناس !

ولتقل أوربا فى دينها ما تشاء !

أما المسلم الذي يتلقى العلم من كتاب الله ، فهو يجد كتاب الله يصف الإله سبحانه وتعالى بأنه هو الظاهر والباطن ، الكبير المتعال ، الذى لا تدركه الأبصار ، والذى ليس كمثله شئ ، والذى هو في الوقت نفسه قريب مجيب ، أقرب إلي الإنسان من حبل الوريد ، ولا تناقض فى حس المسلم بين كل هذه الصفات والأسماء :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩]

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الأنعام : ١٠٣]

﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

[البقرة : ١٨٦]

﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦]

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]

فأى تطور يمكن أن يدخل على هذه العقيدة أو يضيف إليها أو يعطيها تفسيرا غير تفسيرها ؟!

* * *

في صفحة (٨٩) مغالطة من أعظم معالطاته في الكتاب !

فبعد كلام جيد جدا عن طبيعة الشريعة في الإسلام ، وشمولها لكل جوانب الحياة ، واعتبار الالتزام بها متعلقا بالعقيدة (مما يجادل فيه « المثقفون » العلمانيون اليوم!) يقول إنه من الوجهة العملية كان كثير من أحكام الشريعة غير معمول به في الواقع ، وهذا يفسر « السهولة » التي أدخلت بها القوانين الأوربية في العالم الإسلامي ، ونحيت بها الشريعة !

يا عجبا !

ألم تقع معارك من أجل الشريعة بين أهل البلاد وبين المحتل الذي يريد تنحيتها ؟ أو لم يستخدم الغزاة قوتهم العسكرية لتنحية الشريعة وإخماد المقاومة التي قامت بها الشعوب الإسلامية من أجلها ؟ فأين هي « السهولة » التي تم بها الأمر ؟!

إنما سهل الأمر في نفوس الأجيال التي خرجتها السياسة التعليمية والإعلامية التي وضعها الاحتلال الصليبي الصهيوني لتحويل المسلمين عن دينهم ، ولي أعناقهم نحو أوربا ، واحتاج الأمر إلي زمن مديد حتى خضع الناس للأمر الواقع الذي فرضه ذلك الاحتلال بالقوة الجبرية .

ومع ذلك فقد قامت الصحوة رغم كل الظروف المعاكسة ، وكان أول شئ طالبت به هو تحكيم شريعة الله !

أما قصة الأحكام التي لم تكن تطبق على أرض الواقع فقصة مختلفة تماما عما يريد « حب » أن يقول !

لقد وقع التهاون في التطبيق على أصحاب الجاه والسلطان ، انحرافا عن الدين ، لا إهمالا للشريعة في ذاتها ، أو رغبة عنها إلي غيرها . وذلك مما حذّر رسول ﷺ المسلمين منه ولكنهم وقعوا فيه . فقد قال لزيد رضي الله عنه حين أراد أن يشفع للمخزومية التي سرقت : « أتشفع في حدٍ من حدود الله ؟! إنما هلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم

الضعيف أقاموا عليه الحد ! والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1] .

ولكن المسلمين تهاونوا كما تهاونت شعوب قبلهم ، فكانوا إذا ارتكب الجريمة أصحاب الجاه تركوهم ، وإذا ارتكبها الضعفاء وقعوا عليهم العقاب .

ولكن هذا الأمر على سوئه لا علاقة له بالشريعة من حيث هي الشريعة ! فإنه لما جاءت القوانين الوضعية بقى الأمر على حاله من إعفاء ذوى الجاه من العقاب على جرائمهم وتوقيع العقاب على الضعفاء . بل زاد الأمر سوءا حين ارتفع سلطان الدين عن النفوس فى ظل العلمانية ، وصارت الرشوة وسيلة لكل مخالفة ووقاية من كل عقاب !!

* * *

فى صفحتى (٨٩ – ٩٠) يتحدث عن قوانين الأحوال الشخصية وأنها لم تتأثر بالزحف الغربى ، ويرجع ذلك إلي أنها واضحة ومحددة فى القرآن !

وهو تعليل غريب ! فهل هذه وحدها هى الواضحة المحددة فى القرآن ؟ وهل هناك غموض فى بقية أحكام الشريعة ؟!

وليس عندى فى الحقيقة تعليل لبقائها تلك الفترة الطويلة بغير إلغاء ! (وإن كانت قد تناوشتها أقلام « التقدميين » و « التقدميات » منذ فترة) وقد يكون السبب هو أن الحاكم لم يشأ أن يثير ثائرة الجماهير المتشبثة بها ، بينما هى لا تضيره إن بقيت على حالها، لأنها لا تمس سلطانه المباشر ، فالأكسب له أن يبقيها لتكون ستارا له حين يدعى أنه ليس ضد الشريعة من حيث المبدأ !

وأيًا كانت الأسباب ، فجب يرى فى الأمر رأيا آخر . .

فهو يقول إنه حتى الآن ما يزال الاعتقاد عند المسلم أن القرآن كلام الله ، ومن ثم يجب الالتزام به حرفيا . ثم يقول إنه ما دام الأمر كذلك ، والشريعة ثابتة لا تقبل التغيير ، بينما الحياة دائمة التغير لا تثبت على صورة واحدة ، فستظل الأزمة باقية ، لا يمكن حلها إلا بعمل ثورى كالذى صنعته تركيا !

---

(١) أخرجه مسلم.

وواضح فى هذه العبارات مدى حنقه على اعتقاد المسلمين أن القرآن كلام الله ، وحنقه على أن هذا الوضع لم يتغير – مع كل ما بذله المنصرون والمستشرقون والاحتلال العسكرى الطويل – ومدى رغبته فى حدوث ثورات ضد الدين كالتي حدثت فى تركيا ، لتريح الصليبية الصهيونية من همٍّ الإسلام !

* * *

من صفحة (٩١ إلي صفحة ٩٦) يثير كبقية المستشرقين قضية المرأة ، وظلم الإسلام لها ، وعدم مساواتها فى الميراث مع الرجل ، وإعطاء الرجل حق الطلاق وتعدد الزوجات . ويسخر من محاولات « العصرانيين » إعادة تفسير النصوص القرآنية بما يثبت أن الإسلام لا يظلم المرأة ، ويعطيها كيانها الإنسانى ، فيقول إنهم يتحايلون على النصوص ، بينما النصوص صريحة لا تحتمل التأويل ! ومعنى كلامه أن العيب هو فى النصوص ذاتها وليس فى فهم الفقهاء القدامى لها ، كما يحاول « العصرانيون » أن يقولوا ! والواجب فى رأيه هو تغيير النصوص أي استبدال غيرها بها .

ويبدى ترحيبا ظاهرا بضبا كوك ألب التركى والزهاوى العراقى لأنهما هاجما الإسلام هجوما صريحا مباشرا فى قضية المرأة ، ويلمح أن هؤلاء هم الشجعان حقا ، الذين يجب أن يكونوا مثلا لكل المفكرين المسلمين ، ويتحسر على أن هذا لم يحدث إلا في تركيا والهند ، بينما العالم العربى لم يحدث فيه ما يتمناه ويتشهاه من الخروج الصريح على القرآن وأحكامه !

ومما يلفت النظر – ويثير السخرية كذلك – أنه يصف بعض شطحات إقبال بأنها كفر وإلحاد (صفحة ٨١) بينما ضيا ألب اليهودى الأصل [١] ، الداعى إلى الطورانية ونبذ الدين جملة ، هو محل ترحيب منه وإعزاز ! ذلك أن إقبال – رغم شطحاته – بقى يدافع عن الإسلام ، ويدعو المسلمين إلي التمسك به ، فلم يتوفر له شرط الرضا !

---

(١) هو من يهود الدونما المتمسلمين .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ! ﴾ [البقرة : ١٢٠]

* * *

فى الفصل الأخير يستعرض الأزمة التى تحيط بالمسلم المعاصر ، ويناقش الحلول . .

لا حل !

كل ما يقدمه المسلم المعاصر ، سواء كان محافظا أو « عصرانيا » : مدافعا عن الإسلام أو منخلعاً منه . . كله لا غناء فيه . . كله لا يحل الأزمة ! لأن الأزمة كامنة فى طبيعة الإنسان المسلم . . فى طريقة تفكيره ، فى طريقة شعوره ، فى عجزه عن إدراك الكليات واستخلاصها من الجزئيات ؛ فى اعتزازه العاطفى بدينه وتاريخه ، وعدم قبوله للتعامل « العقلانى » مع القرآن ومع شخص الرسول ﷺ .

الحل – باختصار – أن يترك دينه !

ولكنه لا يقول لك هذا ، لأنه يعلم أنك لن تقبل ذلك منه لو قاله لك ، وحينئذ يضيع الجهد كله المبذول فى الكتاب ، وهو جهد ضخم فى الحقيقة من الناحية الموضوعية البحتة ، بصرف النظر عن الروح الدافعة إلى الكتابة ، والمنبثة فى كل عبارة وكل فكرة . .

على العكس من ذلك يعطيك كلاما « حلوا » يرضى به مشاعرك ، ويشعرك وهو يودعك بعدما أشبعك نقدا وتجريحا وتخذيلا أنه صديق لك ، يحب لك الخير ، ويتمنى لك التوفيق !

يقول : إن هذه العيوب التى استعرضها فى الكتاب قد تضفى مسحة من الصدق على التهمة التى يثيرها النقاد الغربيون والشرقيون سواء ، وهى أن الإسلام دين متحجر . ولكنه هو – جب – يرى أن التهمة باطلة ! وأن الإسلام دين حىّ ، ذو فاعلية ، يجتذب قلوب عشرات ومئات من ملايين البشر ، ويحرك ضمائرهم ، ويقيم لهم صرحا من القيم ليعيشوا أمناء ، جادين ، مخبتين إلى الله .

ثم يختم حديثه بأن يقول : إنها مهمة المسلمين أنفسهم (أى بلا تدخل

ما !) أن يجدوا طريقهم ، وأن يعيدوا تشكيل مبادئهم الاعتقادية والسلوكية بمقتضى المنهج الصحيح (!) وهي مهمة لن تكتمل قبل مضى عدة أجيال ، وربما لا تتم بغير صراع . ولا بد للحق أن يقاتل من أجل إثبات وجوده ، وليس يكون دائما منتصرا فى خطواته الأولى ! (إنما النصر فى نهاية الطريق ') .

* * *

هذا المشوار الطويل الذى قطعه جب فى كتابه ذى المائة والتسع والعشرين صفحة من القطع المتوسط ، بم تخرج منه فى نهاية المطاف ؟

هل يختلف كثيرا عن بقية المستشرقين ؟

فى الظاهر قد يكون ! أما فى المحتوى فالأهداف هي الأهداف !

obeikandl.com